المنطلقات الفكرية للمناهج الحديثة وإشكالاتها في قراءة الخطاب القرآني

بلمهدي عياد،
طالب سنة رابعة دكتوراه علوم
المشرف :الاستاذ.د. محمد زيوش
جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف
مخبر: تعليمية اللغة وتحليل الخطاب
ayadmahdi485@yahoo.com

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى إبراز الخلفيات الفكرية للمناهج النقدية الحديثة، التي اكتسحت الساحة الأدبية العربية، وتهافت عليها كثير من النقاد، معتبرين أن هذه المناهج مجرد أدوات إجرائية وآليات تتعامل مع النصوص الأدبية وتحللها، جاهلين أو متغافلين أن كل منهج إلا وله بيئة أنبتته، وظروف تاريخية ومعرفية أوجدته وخلفيات إيديولوجية ومنطلقات فكرية...مما أوقع النقاد في إشكالات متعددة واضطراب كبير، خاصة عند تطبيق هذه المناهج في قراءة الخطاب القرآني، الذي له خصوصية وقداسة وتبجيل، تميزه عن باقي النصوص الأدبية الأخرى.

الكلمات المفتاحية: المناهج الحديثة، منطلقاتها الفكرية، إشكالاتها التطبيقية، الخطاب القرآني.

Summary:

This study seeks to highlight the intellectual backgrounds of the modern monetary curricula, which swept the Arab literary scene, and many critics rushed to them, considering that these curricula are merely procedural tools and mechanisms that deal with literary texts and analyze them, ignorant or uninteresting. And the knowledge of its creation and ideological backgrounds and intellectual premises ... This has caused critics in many problems and great turmoil, especially when applying these methods in reading the Quranic discourse, which has its own privacy and sanctity, and distinguish it from other literary texts.

Keywords: Modern Curriculum, Intellectual Implications, Applied Problems, Quranic Discourse.

مقدمة:

لا يخفى أن للاتجاهات الفكرية تأثيرا كبيرا في المواقف والمعاملات وجميع التصرفات، فالفكر هو مقدمة السلوك، ومنبعه وأصله الذي منه يستمد، ومن الخطأ أن نحلل أي قضية دون الرجوع إلى منابعها الفكرية التي منها انطلقت، وبيئتها الأصلية التي فيها نشأت، خاصة إذا مست هذه القضية تاريخ الأمة وثقافتها ودينها ولغتها، وكل مقاوماتها ومرجعياتها ورموزها...، وانطلاقا من هذه التطورات البدهية والمنهجية نحاول في هذا البحث أن نتعرف على المنابع الفكرية التي انطلق منها المفكرون المعاصرون في قراءاتهم للنصوص الدينية وخاصة الخطاب القرآني، وماهي أهم المناهج الحديثة التي وظفوها في ذلك؟ وما الدواعي والبواعث من وراء استدعاء هذه المناهج الغربية؟وهل أفاد نقادنا من هذه الآليات وأضافوا إضافات خدمت الخطاب القرآني...

فهذه التساؤلات وغيرها نحاول الإجابة عليها في هذا البحث المختصر والهام، فهو مختصر بالنظر إلى المنهجية العلمية في كتابة المقالات، والهام لأنه يتعلق بكلام الله عز وجل فأهمية الموضوع وشرفه، من أهمية المحتوى والمضمون.

المنطلقات الفكرية:

يقصد بالمنطلق الفكري، الأساس الذي يبنى عليه الفكر، ليكون فيما بعد توجها يلقى بتأثيراته على الواقع المعيش.

والفكر لغة: هو اسم مصدر من التفكير، يقال: فكر تفكيرا، ومعناه: التأمل في الشيء وإعمال الخاطر أو العقل فيه، جاء عند ابن فارس: " فكر " الفاء والكاف والراء، تردد القلب في الشيء، يقال: تفكر إذا ردد قلبه معتبرا، ورجل فكير، كثير الفكر(1)، وقد وردت مادة "فكر"في القرآن الكريم في نحو عشرين موضعا، وكلها جاءت بصيغة الفعل، ولم ترد بصيغة الاسم أو المصدر(2)، منها قوله سبحانه وتعالى "وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون"(3) .

والفكر في الاصطلاح: "هو النشاط الذهني بما فيه من تركيب وتنسيق ووجدان وعاطفة وإرادة "(4) وقد تعددت المنطلقات الفكرية وتنوعت، وظهرت في جوانب مختلفة، اجتماعيا، تاريخيا، دينيا، سياسيا، ثقافيا، اقتصاديا... وهكذا نكون أمام فكر اجتماعي، فكر تاريخي، فكر ديني، فكر سياسي...

ونحن في بحثنا هذا نضيق الدائرة، ونحاول تحديد المنطلقات الفكرية في جانبها الأدبي والنقدي المعاصر، وإن اختلطت بالجانب الديني بحكم طبيعة الموضوع، لتقرر لنا بعد ذلك كتلا وتنظيمات وحركات، ذات توجهات دينية، لها أفكار وآراء ونظريات ومواقف تتفق أحيانا، وتختلف أخرى، وإذا ركزنا على المنطلق الفكر الأدبي والنقدي في العصر الحاضر، لابد لنا من النظر في الإطار الفكري العام الذي أحدثه الخطاب القرآني منذ نزوله على الرسول ﷺ، فكل الإرهاصات الفكرية مرّت عبر مراحل، ونمت وتطورت بسبب التأثيرات التاريخية، واتساع رقعة الدولة الإسلامية، ودخول غير المسلمين في

الإسلام، فتناولوا القرآني الكريم، ودرسوه من كل النواحي: عقديا وفقهيا، ولغويا وبلاغيا، ونحويا وصرفيا، وصوتيا ...وبينوا أسباب نزول الآيات ودلالاتها، وانسجامها وحسن سبكها ونظمها، وترتيب السور، وبينوا المحكم من المتشابه، والمكي من المدني... فكثرت التفاسير بأنواعها المختلفة، وانطلاقا من انقسام المسلمين سياسيا. وظهور علم الكلام والفرق الكلامية والمذاهب الفقهية والنحوية والآراء الفلسفية والجدلية...

أدى ذلك إلى تطور النشاط الفكري، واختلاف وجهات النظر وزاد هذا النشاط الفكري في العصر الحديث، خاصة بعد تعرض البلدان العربية والإسلامية للحملات الصليبية التي سعت بكل ما أوتيت من قوة وبكل الوسائل المتاحة إلى محو القرآن الكريم من السطور والصدور، ولكنها عجزت لأنه ببساطة هذا الكتاب لا يغير ولا يحرف ولا يبدل، ولا يزاد فيه ولا ينقص منه، لأن الله عز وجل تولى حفظه" إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"(5).

ولا شك أن لكل مفسر وكاتب وناقد " خلفية فكرية" و"أفقا مفاهيميا" أو" مسلمات قبلية " تدفعه وتخلق فيه رغبات وميولا وترقبات وتطلعات خاصة. وانطلاقا من هذه الخلفية المسبقة، والذخيرة الفكرية المخزنة، يتعاطى الناقد أو الكاتب مع محتوى النصوص ومضامينها،بما يتناسب مع الثروة الفكرية وتتم من خلال عملية التفسير أو النقد، وهكذا تظهر آراء وافتراضات وأفكار مسبقة جديدة في شخصية المؤلف أو المفسر أو الناقد، وهي بدورها تؤثر في معالجته للنصوص معالجة جديدة تختلف عن غيره.

فالناقد حين ينقد نصا ما، فهو يعيد ذلكم النص الذي يريد قراءته ونقده إلى موقعه التاريخي الخاص به ثم يجمع كل ملابسات وظروف ذلك الزمن والمكان الذي صدر فيه النص، مع مراعاة التوقعات والترقبات، والخلفيات الفكرية والذهنيات للقارئ أو المتلقي، وماذا يتوقع من هذا النص عند صدور هذه القراءة، أي أنه يريد أن ينجح في إدراك معنى النص الظاهر والخفي، وإبراز المعنى ومعنى المعنى، وفق مراد الناقد، وفهم

السامع وذوق القارئ وإثارة المتلقي، فإذا وصل إلى هذه النقطة، عند ذلك يجب عليه أن يسعى إلى مواءمة ذلك وتطبيقه بما يتناسب وظروف العصر الحاضر.

فإذا طويت هذه المسافة بنحو صحيح، عندها يكون فهم النص ممكننا، والتعاطي معه مقصدا، وتثويره وإثارته غاية وهدفا .

وفي العصر الراهن، ظهرت مناهج غربية، وآليات معاصرة، اختلف بشأنها النقاد والمفكرون، بين مؤيدين لها ومنكرين ومتحفظين، خاصة في مجال تطبيقها على النصوص الدينية عموما، والخطاب القرآني بخاصة، فما هو المنهج إذن؟ وماذا أضافت هذه المناهج الحديثة للنصوص الدينية؟ وماهي إشكالات تطبيقها على الخطاب القرآني؟

- **مفهوم المنهج:** المنهج هو ترجمة للكلمة الفرنسية " La méthode" أو الإنجليزية "The method" وهما مشتقتان من كلمة يونانية هي "methodos" وتعني عند أفلاطون " البحث، النظر، المعرفة، كما أنها غالبا ماتعني عند أرسطو "البحث".

وإذا تصفحنا المعاجم اللغوية فإننا نجد مجموعة من الدلالات اللغوية كلها تحيل على الخطة أو الطريقة، والهدف والسير الواضح، وهذا يعني أن المنهج هو خطة واضحة ومضبوطة بمقاييس وقواعد، تؤطرها خلفية فكرية وفلسفية.

- المنهج لغة: كلمة مشتقة من الفعل "نهج" وقد ورد هذا اللفظ في العديد من المعاجم العربية القديمة والحديثة، ومن بينها معجم" لسان العرب لابن منظور والذي جاء فيه:

"نهج" (بتسكين العين) طريق بيّن واضح، والجمع نَهَجَاتٌ، و"نهج"، ونُهُوجٌ... وفي التنزيل قال الله عزّ وجل:" لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا" (6)، وروى العباس(رضي الله عنه)أنه قال: "لم يمت رسول الله حتى تركّكم على طريقة ناهجة واضحة بينة"(7).

وفي معجم المصطلحات العلمية والفنية، وردت كلمة "المنهج" بالطريق الواضح في التعبير عن شيء أوفي تعليم شيء طبقا لمبادئ معينة، وبنظام معين، بغية الوصول إلى

غاية معينة"(8)، وجاءت كلمة "المنهج" في معجم مصطلحات الأدب على النحو التالي " طريقة الفحص أو البحث عن المعرفة...وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة"(9).

هذه بعض التعاريف اللغوية المأخوذة من بعض المعاجم القديمة والحديثة،توحي في مجملها إلى دلالات وإشارات تتعلق بالمفهوم الاصطلاحي لكلمة "منهج" التي تعني إجمالا "طريق البحث عن الحقيقة في أي علم من العلوم، أو في أي نطاق من نطاقات المعرفة الإنسانية(10)، أو هو "مجموع الطرق التي يتبعها العقل من أجل اكتشاف الحقيقة والبرهنة عليها"(11).

ونظرا لكثرة المفاهيم والتعاريف لمصطلح "المنهج، اكتفينا بما ذكرنا، وننتقل إلى أهمية هذه المناهج في الدراسات الحديثة.

أهمية المناهج في الدراسات اللسانية الحديثة :

تظهر أهمية هذه المناهج وتتجلى في أن المنهج يشكل "حاجزا بين الذات والموضوع، أي بين ذات الدارس أو الباحث غير المجردة من الخلفيات والأفكار والميولات والتأثيرات المتعددة....وبين الموضوع المطروح الذي يقول أشياء بعيدة عن دلالته، فالمنهج بهذا المنظور يعتبر:

-وسيطا بين الدارس والموضوع المدروس.

-كما أنه يحظى ويتميز بخاصية الاستقلال عنهما معا، فهو باعتبار هذه الخاصية بمثابة الآلة في العلم المعاصر(12).

وخلاصة الكلام أن المنهج هو "الطريقة التي تضمن للباحث أن يصل إلى الحق فيركن إليه ظانا أنه الحق الذي يبحث عنه ويسعى إليه، سواء كان هذا الحق الذي يبحث عنه خبرا يريد أن يتبين صحته، أو أن يعلم مضمونه، أم أطروحة علمية يريد أن يعرف دلائل صحتها أو بطلانها"(13)، ومن هذه المعطيات وبهذه المفاهيم، لا تخلو أمة من الأمم

لها تاريخ وثقافة وحضارة وفكر...من هذه المناهج، ولكن التفاوت يكون بين هذه الأمم من حيث نظرتها لهذه المناهج ودورها في تطوير الفكر وإعماله والاستفادة من إيجابياتها ورفض ما يضر... وفق الثوابت العقدية والدينية.

إشكالات المناهج المعاصرة:

استعملنا لفظة "إشكالات" بدلا من استخدام لفظ "مشكلة" والفرق بين اللفظين ظاهر وواضح وجلي فالمشكلة تتميز بكونها يمكن الوصول بشأنها إلى حل يلغيها، فالمشاكل دائما ما تنتهي إلى حل، إلا بعض الاستثناءات فالناظر إلى المشاكل التي يصادفها الباحثون في العلوم الطبيعية بمختلف أنواعها، فهي غالبا ما تنتهي إلى نوع من الحلول آجلا أو عاجلا، لذلك قيل "إن الإنسانية لا تطرح من المشاكل إلا التي تقدر على حلها.

أما لفظ "الإشكالات" جمع "إشكالية" فهي من الكلمات المولدة في اللغة العربية، وهي ترجمة لكلـمة « Problématique » فجذرها العربي يحمل جانبا أساسيا من معناها الاصطلاحي، يقال :أشكل عليه الأمر، بمعنى التبس واختلط، وهذا مظهر من مظاهر المعنى الاصطلاحي للكلمة، لأن الإشكالية في الاصطلاح العلمي المعاصر هي :"النظرية التي لم تتوفر إمكانية صياغتها، أو هي منظومة من العلاقات التي تنسج داخل فكر معين فردي أو جماعي، فهي مشاكل لا يمكن حلها منفردة، ولا تقبل الحل نظريا إلا في إطار عام يشملها جميعا.

لذا فالنقد الأدبي العربي الحديث والمعاصر يعيش توترا انتهى إلى أزمة بسبب التهافت على هذه المناهج الغربية دون تثبت أو تريث وتروٍ،وتلقّ معقول ومقبول، فهذا التهافت اللامضبوط ولد أزمة أو إشكالية أو إشكالات تعددت مظاهرها، وتفرقت مفاهيمها، وتشبعت مناحيها، واختلفت طريقة تناولها، فأصبح حلها منفردة مستحيل، بل لابد أن تحل هذه الإشكالات في إطار عام يشمل كل المظاهر والنواحي، وهذا ما دعا إليه كثير من النقاد والمفكرين، فالباحث في هذا الموضوع يجده متداول بكثرة في كتابات كتابنا ونقادنا وباحثينا، فقد تطرق إليه سعيد سمير حجازي في كتابيه "**إشكالية المنهج في النقد**

العربي المعاصر"و "**المناهج المعاصرة في دراسة الأدب**"، وتناوله خلدون الشمعة في كتابه "**المنهج والمصطلح**" وكتب عنه عباس الجراري كتابا بعنوان "**خطاب المنهج**" وغير ذلك من الكتب، والكثير من المقالات التي تناولت إشكالات المناهج النقدية على غرار الكاتب حسن المنيعي الذي كتب مقالين، الأول بعنوان: "**أزمة المنهج في النقد العربي**" والثاني "**إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث**" وكذلك "**اللغة الثانية** "لفاضل ثامر، وغير ذلك من المقالات، ناهيك عن ما عقد عن هذا الموضوع من ملتقيات وندوات ومؤتمرات وأيام دراسية...ورغم هذا التراكم العددي في الموضوعات المنجزة حول الإشكالية المنهجية في النقد الحديث والمعاصر، وما كتب وألف وما بذل من جهود، إلاأن هذا الموضوع لايزال يثير النقاد، وهم في أمس الحاجة للمزيد من الدراسة والتمحيص والإثراء أكثر من أي وقت مضى، فسؤال المنهج في سياقنا الثقافي الراهن، لايزال مفتوحا ومطروحا، لم يستفرغ حمولته بعد، ولم ينته إلى قرار (14).

وهذه الإشكالية لم تكن جديدة، بل هناك عوامل عديدة تكاتفت فيما بينها وساعدت على ظهورها، لتكون عقبة في طريق نمو وتطور الخطاب النقدي العربي الحديث والمعاصر الذي ذاب في هذه المناهج الغربية الجديدة، وطبقها بآلياتها وتصوراتها مما أفقدنا ذاكرتنا وهويتنا وذاتنا العربية "فمختلف الاتجاهات في نقدنا العربي الحديث والمعاصر-عامة- هي أصداء لتيارات نقدية أوروبية وبالتالي فهي أصداء كذلك لما وراء هذه التيارات من مفاهيم إبستمولوجية وإيديولوجيات (15).

أسباب ظهور إشكالات المناهج:

هناك أسباب كثيرة، وعوامل متعددة ساهمت في إنتاج هذه الإشكالية وعملت على استفحالها، ومن بين هذه الأسباب:

- الطريقة التي يتعامل بها النقاد مع الرؤى التي أنتجها الغرب وكيفية تطبيقها على النص الأدبي.

- إعطاء السلطة المطلقة للمنهج النقدي ليقول الشيء الذي يريده بدل النص الأدبي الذي غيّب، رغم أن السبب عائد إلى طبيعته المعقدة "فهو بنية لغوية فنية منغلقة بالنظر إلى الشكل المجسد للعناصر اللغوية، ومنفتحة بحسب قدرات التأويل وعمق دلالات النص، ومرجعياته، ويصبح خطابا إذا انسلخ عن أصله وتجاوز حدوده فيستقبله قراء كثيرون، يفجرون طاقاته الكامنة كل بحسب محصله المعرفي وانتماءاته" (16).
- رغم الإفادة من هذه المناهج وتطبيقها على القصيدة العربية المعاصرة، إلا أنها زادت النص الأدبي غموضا، فبدل أن تكشف لنا عن خباياه وأسراره، زادت من انغلاقه من خلال اللجوء إلى المنحنيات البيانية، والأشكال الهندسية والإحصاءات وغيرها من الأدوات والآليات التي تستعمل مؤخرا في قراءة النصوص الأدبية، فكيف بالخطاب القرآني.
- كذلك اختلاف الثقافتين، العربية والغربية، وتباين المجتمعين، وكذا الفارق الزمني بين الحضارتين، فقد ظهرت هذه المناهج في أوروبا واستغرق ظهورها واكتمالها قرابة ثلاثة قرون، وعند انتقالها إلى العالم العربي لم يتجاوز وجودها والعمل بها ربع قرن، والدليل أن بعض هذه المناهج في أوروبا تجاوزها الزمن، كالبنيوية مثلا، ولم يعد لها أدنى اهتمام، بينما في العالم العربي لم تزل تدار حولها الدراسات والأبحاث وتحلل بها النصوص الأدبية.
- إضافة إلى ما يتعلق بذهنية القارئ العربي المتواضعة التي لا تمتلك كفاءة أدبية كافية، ولا أرضية نقدية قادرة على استقبال ما يفد إليها من الخارج، وفهمه والعمل به في تحليل النصوص الأدبية.
- كما أن كثيرا من الأسباب يعود إلى طبيعة الخطاب النقدي الذي صمم لدراسة النص الأدبي الغربي أولا وموجه ثانيا إلى القارئ الغربي الذي توفرت له الأرضية النقدية المتمثلة في المصطلحات المستنبطة من ثقافته وواقعه وبيئته

ومجتمعه، فإذا تلقف القارئ العربي هذه المناهج دخل في حالة "اغتراب" وعزلة وكل ذلك بسبب اندفاع غالبية النقاد في الثمانينيات إلى محاكاة نموذج الثقافة الغربية، دون تحديد للمدلول في بنية اللغة والثقافة العربية (17).

- أضف إلى ذلك عدم تحديد وضبط المصطلحات النقدية المترجمة، فهي تختلف في مدلولاتها ومعانيها من لغة إلى أخرى وهذا راجع لاختلاف الترجمة.

ومن بين هذه المصطلحات النقدية الكثيرة التي شغلت بال الباحثين والمفكرين والنقاد وبحثو فيها كثيرا مصطلح " الخطاب" فما هو الخطاب إذن

مفهوم الخطاب:

ورد لفظ الخطاب في المصباح المنير للفيومي بما معناه" خاطبه، مخاطبة وخطابا، وهو الكلام بين متكلم وسامع ومنه اشتقاق الخطبة-بضم الخاء-وهي فعلة بمعنى مفعولة، نحو نسخة منسوخة، وغرفة من الماء بمعنى مغروفة وجمعها خطب مثل: غرفة وغرف، فهو خطيب، والجمع خطباء، وهو خطيب القوم، إذا كان هو المتكلم عنهم (18).

أما في الاستعمال الإصطلاحي فقد تعددت أنواع الخطاب في بنيته و أدبيته وأنماطه، وهذا باختلاف مرجعياته، فقد أفضى هذا المصطلح إلى معان كثيرة ومتعددة،سواء في الفكر الغربي أو العربي، نتيجة لتعدد مجالاته واختصاصاته، وهو واحد من المصطلحات التي تكونت حولها ضبابية الرؤية التعريفية، بمعنى أنه كان ولا يزال محور جدل بين الباحثين، قصد إيجاد صيغة تعريفية مانعة له، فالخطاب كمفهوم ظل يقبل التأويل في حقول معرفية أخرى، دون الوصول إلى إطار معرفي يؤدي إلى تحديد خصائصه وسماته وضبط مفهومه، لأن جل الخطابات خاضعة للمعارف التي تستخدم فيها، كالخطاب السياسي، والخطاب الإعلامي والخطاب الديني، والخطاب الأدبي، والخطاب الفلسفي، والخطاب القرآني...، ونظرا لتعدد تعاريف الخطاب وتقاربها وتداخلها، فإننا نكتفي بتعريفين: الأول للمفكر الروسي (ميخائيل باختين M.BAKHTIN) (1895-1975) الذي

عرف الخطاب بأنه: " خطاب في الخطاب، وتلفظ في التلفظ، لكنه في الوقت ذاته خطاب عن الخطاب وتلفظ عن التلفظ" (19).

من خلال هذا التعريف نرى أن باختين يفسر الخطاب بالخطاب، وأن الخطاب الواحد قد يكون شاملا لعدة خطابات، وكأنه ينفي عن الخطاب التفرد والتجرد، فهو دائم الارتباط بالعلاقات الخارجية، وبالمجتمع عامة فدراسة الخطاب عند باختين تعني دراسة عمليات التلفظ اللغوي في سياقاتها الاجتماعية، مما يعني أن السياق الاجتماعي جزء لا ينفصل عن أي فعل لغوي.

أما ميشال فوكو M.Foucault (1926-1984) فعرفه بأنه: "كيان خاص متماسك بنفسه ومترابط وصحيح ومفهوم، ينتج بطريقة معقدة من النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز الكيفية التي ينتج بها الكلام كخطاب" (20).

ويعرفه أيضا بأنه: " مجموعة من الأدلة من حيث هي عبارات...والتي تنتسب إلى نفس نظام التكون" (21)، فالممارسة الخطابية عند فوكو، تتشكل في صميمها من "منظومات عبارية عامة، تحكم مجموع الإنجازات اللفظية، وتخضع كذلك لمنظومات منطقية ولسانية وسيكولوجية"(22).

وإذا كان الخطاب ببنيته وأدبيته وأنماطه، قد تعددت أنواعه واختلفت باختلاف حقوله المعرفية ومرجعياته، فلاشك أن الخطاب القرآني-بوصفه نموذجا لفظيا متعاليا- يأتي على رأس هذه الخطابات، بل ومن أشدها تميزا على الإطلاق وهذا لما يحمله من خصائص نوعية تضمن له التفرد والتميز، فهو خطاب إلهي متعال، من أكثر الخطابات إقناعا وتأثيرا وتعبيرا عن الحقيقة، وتفعيلا للحدث، لا يدخله الخلل أو النقصان، فهو خطاب تبليغ مرسل من رب العالمين، إلى مرسل إليه، هم الناس أجمعين، وأن حامل هذا الخطاب ومبلغه، هو الرسولﷺ فهذا الخطاب مخترق حدود الزمان والمكان، هو خطاب مستمر وصالح وكامل وشامل لكل حاجات البشر لأنه يخاطب الإنسان كله، لا عقله وحده، ولا وجدانه وحده، ويخاطبه في جميع حالاته مقبلا ومدبرا، صاعدا

وهابطا، حي الوجدان، متلبد الحس، مستثارا و هادئا، متطلعا وخائفا، ضاحكا وباكيا، مستكبرا ومستسلما يقظا وغافيا، مستقيما على أمر الله وجانحا عن السبيل...

عالمية الخطاب القرآني:

الخطاب القرآني خطاب عالمي للناس جميعا، فخلال مدة وجيزة لا تتعدى مائة عام، صار هذا الكتاب منهاج أمة عظيمة تمتد مساحتها من الصين شرقا إلى المغرب والأندلس غربا، وطوال أربعة عشر قرنا ونيف من الزمان ظل هذا الكتاب العزيز مصدر هداية وإرشاد لملايين البشر الذين انتشروا في أرجاء العالم القديم، ثم في العصر الحديث امتد تأثيره ليشمل كل أرجاء المعمورة.

فهذه حقيقة لا يستطيع أحد ردها لوضوحها وثبوتها، فهي آية عظيمة الدلالة، واضحة الحجة والبرهان على أن هذا الكتاب ليس كأي كتاب، وأن ما حواه من مبادئ وقيم وتعاليم، لا يحويه أي كتاب، وحق له ذلك، فلا يكون لأي كتاب مهما علا شأنه، وبلغت حجة صاحبه، وقوة عبارته، وجزالة بيانه، أن يضاهي بل يقارب كتابا حوى كلام الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فإذا أضيف إلى ما سبق أن هذا الكتاب قد نزل في شبه الجزيرة العربية وهي يومئذ في ذيل الأمم حضاريا وثقافيا واقتصاديا وسياسيا...ثم حمله العلماء والدعاة إلى شتى بقاع الأرض فخضعت لسلطانه-الروحي-في تلك المدة الوجيزة، أمم عريقة في الحضارة والتقدم والتطور بمقياس ذلكم الزمن، أيقنا أن هذا الكتاب يحمل في طياته وبين ثناياه قيما ومثلا وتعاليم، تتجاوز حدود الإقليم الذي نزل فيه، وأن تعاليمه عالمية، بمقاييس ذلك الزمن وزماننا هذا والأزمنة القادمة إلى قيام الساعة.

فالخطاب القرآني عالمي، وصالح لمخاطبة كل الناس وإقناعهم وإخضاعهم لسلطانه، والتسليم لحججه وبراهينه في كل زمان ومكان (23).

وكي نتناول الخطاب القرآني من خلال رؤية أدبية نقف عند تخومه التكوينية التي شكلت فضاءه في أبعاده الجمالية والمعرفية، لأن هذا الخطاب طرح كموضوع للقراءات

والتساؤلات والتحريات- قديما وحديثا- المتعلقة بمفهومه ومكانته التاريخية واللغوية، وبأبعاده التواصلية، فقراءة الخطاب القرآني من خلال المناهج الحديثة وآليات الفهم المعاصرة، لها مقاصد ومرامي، من حيث منطلقاتها ودوافعها وغاياتها وأبعادها...فأين وصلت هذه المناهج في تعاملها مع النص القرآني؟ وهل وفق النقاد في تطبيق هذه المناهج بكل خلفياتها الفكرية في قراءة الخطاب القرآني المقدس؟ كل هذه التساؤلات وغيرها نحاول الإجابة عليها باختصار تحت هذا العنوان:

الخطاب القرآني والمناهج الحديثة:

سعى العديد من النقاد المعاصرين إلى تطبيق مناهج حديثة في قراءة الخطاب القرآني وتعددت قراءاتهم باختلاف مرجعياتهم الثقافية، ومنطلقاتهم الفلسفية والمعرفية والدينية، وكان لنقادنا نصيب من هذه القراءات مثل: "محمد طول" و"سليمان عشراتي" و"حبيب مونسي" و"محمد أركون" وإن كان هذا الأخير تختلف قراءته عن هؤلاء السابقين، في أبعادها الفلسفية.

ومن أبرز هؤلاء "عبد المالك مرتاض" الذي كانت له عديد الدراسات الإسلامية الناتجة عن ثقافته الدينية وعلاقته الروحية التي تربطه بالقرآن الكريم، وتشبعه بقيم الدين الحنيف، ولعل كتابه "**نظام الخطاب القرآني تحليل سيميائي مركب لسورة الرحمان**" واحد من هذه الدراسات، والذي ألفه خدمة لكتاب الله عز وجل، وقد أجاد وأفاد وأبدع، فكانت هذه الدراسة بحق إضافة نوعية، وفق صاحبها في تطبيق المنهج السيميائي على الخطاب القرآني .

ومن جهة أخرى نرى أن " أركون" الذي جاء بمشروع "إعادة تفسير القرآني الكريم، أو إعادة قراءته"، وهذا المشروع ظل يتراوح بين مختلف النظريات والمناهج، فقد دعا إلى الأخذ بالبنيوية، ثم انتقل إلى اللسانيات، ثم إلى السيميائيات، ثم انتقل إلى علم الأناسة

والأنثربولوجيا، وأحيانا يدعو إلى النظر في القرآن الكريم اعتمادا على سديم من المناهج المتعددة (24).

وللإطلاع أكثر على هذا المشروع بخطواته، خاصة دعوته للاستفادة من اللسانيات البنيوية في فهم كتاب الله يمكن الرجوع إلى كتاب "**القرآن الكريم ومناهج تحليل الخطاب**" للكاتب عبد الرزاق هرماس(25).

وقراءة القرآن وتفسيره وفهمه في ضوء المناهج المعاصرة، فيه جانب يوفر أدوات وطرقا تفيد الدرس القرآني وفيه من المناهج ماهو غير صالح أصلا للتطبيق على كتاب الله.

ورغم اختلاف المنطلقات المعرفية لدعاة إعادة قراءة القرآن، إلا أن هناك خاصيتين اثنتين تميزان أصحاب هذه الدعوة:

- الخاصية الأولى: هي طرح المنطق اللغوي، أو المطالبة بتجاوز ما يقتضيه اللسان العربي، وعللوا ذلك بدعوى "تجديد اللغة" أو "نسبيتها" أو "تأخرها العلمي مقارنة بعلم اللسانيات الحديث".

ولا يخفى أن –منطق اللغة-إن صح التعبير- هو الضابط الأساسي والذي يميز الصحيح من السقيم، فإذا تم تجاوزه أو إسقاطه سهل على كل صاحب بدعة نشر دعواه وإضفاؤها على النصوص.

- الخاصية الثانية: هي الحرص على هدم القديم، سواء كان ذلك القديم الجزء الثاني من الوحي، وهو السنة، أو كان هو التراث التفسيري الضخم باتجاهاته اللغوية والبيانية والفقهية (26).

والغالب على دعاة تطبيق المناهج المعاصرة على القرآن الكريم أنه لم يسلم من مطا عنهم أحد من أعلام التفسير، وقديما قال أبو محمد بن قتيبة عن طائفة من أهل الكلام : " وقد تدبرت مقالة أهل الكلام، فوجدتهم يقولون على الله مالا يعلمون،

ويفتنون الناس بما يأتون، ويبصرون القذى في عيون الناس، وعيونهم تطرف على الأجذاع، ويتهمون غيرهم في النقل، ولا يتهمون أراءهم في التأويل..." (27).

والغريب أن الكثيرين من دعاة تطبيق هذه المناهج الحديثة، يصرون ويحاولون استخدام ما اصطلح عليه "باللسانيات البنيوية "، والبنيوية في حد ذاتها تقرر أنه لا يوجد قراءة _ أو تفسير _ بريئة لأي نص من النصوص فهذه الخاصية تسمح بإسقاط مختلف البدع على القرآن.

كما أن البنيوية واعتبارا لظروف نشأتها وتطورها بعد ذلك انحصرت دائرة اهتمامها في دراسة الأساطير وهذا واضح من خلال كتابات مؤسسها (ليفي ستروس)، زيادة على أن البنيوية أضحت منذ أوائل السبعينيات مسألة تجاوزها الزمن رغم أن بعض الكتاب العرب لايزال مفتونا بها حتى اليوم.

ومن المناهج التي استخدمت بكثرة في قراءة الخطاب القرآني :

- **المنهج التاريخاني**: هذا المنهج يعتبر أن تفسير النص عموما والديني خاصة يجب أن يكون مرهونا بتاريخه، ويجب أن يكون ساكنا هناك لحظة ميلاده، فهذا المنهج يصدر عن نزعة مادية وضعية لا تؤمن بأن الأديان هي من صنع الله تعالى، بل تعتبرها إنشاء إنسانيا والغرض من إلصاق النص بالتاريخ هو تسويغ للتخلي عليه الآن.

والمتتبع لما يكتب ويؤلف ويطبع وتقام حوله الندوات والمؤتمرات والملتقيات يرى كثرة الدراسات التي تهتم بالدراسات الشرعية عامة والدرس القرآني على الخصوص، وما ينشر عن القرآن من تفسير وقراءة ودراسات منها ما هو نافع إيجابي، ومنها ما تقول وافتراء على كتاب الله ومن الخير للقرآن أن يستفيد من كل جديد في مجال المناهج المعرفية، لكن تلك الاستفادة تظل مرتبطة بشروط البحث العلمي، فتطبيق هذه المناهج على القرآن الكريم بدعوى " عالمية خطابه" ودعوته للناس لن تكون على حساب هديه وأحكامه .

فالخطاب العالمي للقرآن لن يكون إلا خطابا واحدا، لأن الله سبحانه وتعالى نزه كتابه عن الاختلاف والتناقض، وهذه الوحدة لن تكون إلا في إطار الضوابط المنهجية للتفسير، وهذه الضوابط ليست مبتدعات ومخترعات من المفسرين القدامى، بل هي حصيلة استنباط واستقراء لنصوص الوحي نفسها كتابا وسنة، وهي حماية للقرآن الكريم من التأويل المذموم (28)، والفهم الخاطئ، وادعاء الزيادة والتكرار والتناقض في القرآن...

جاء في كتاب "**التراث والتجديد**" للمؤلف حسن حنفي قوله :" ...أما علم التفسير فإنه أيضا يعاد بناؤه بحيث يتم تجاوز التفسير الطولي، (سورة سورة وآية آية) وتجاوز التفسيرات اللغوية والأدبية والفقهية، وبداية التفسير الموضوع بوصف بناء الشعور(29)، والمعروف عن الدكتور حسن حنفي أنه من أكثر المؤرخين للماركسية خوضا في القرآن الكريم والعلوم الإسلامية عامة، واهتمام الماركسيين العرب بالقرآن، ظهر في السبعينيات، ولم ينظروا إلى القرآن أبدا، على أنه وحي من الله، بل هو في نظرهم لا يعدو كونه جزءا من التراث الذي أنتجه عقل البشر، وينظر في هذا الباب بعض المؤلفات مثل : "**رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط**" ،للطيب تيزيني نشر دار دمشق 1971، و"**النزاعات المادية**" لحسين مروه و"**نحن والتراث**" لمحمد عابد الجابري....

ودعاة الماركسية يريدون إفراغ الوحي من ربانيته وهذا بضرب مصطلحاته الثانية، ويبدؤون بتجديد اللغة لأن تجديد اللغة في نظرهم هو بداية العالم الجديد، يقول حسن حنفي: "... يسيطر على هذه اللغة القديمة الألفاظ والمصطلحات الدينية مثل: الله، الرسول، الدين، الجنة، النار، الثواب، العقاب،... هذه اللغة لم تعد قادرة على التعبير عن مضامينها طبقا لمتطلبات العصر"(30).

وهكذا ينتهي التفسير الماركسي إلى إضفاء معطياته المادية، ليس على الوحي وآيات القرآن فحسب، بل حتى على رب العزة سبحانه وتعالى عما يصفون(31).

ويبقى أن تجربة المناهج الغربية في تأويل القران الكريم كانت غالبا فاشلة، وفشلها لا ينبع من إمكاناتها المعرفية، بل بسبب الخلفيات الاعتقادية التي جعلت من هذه المناهج مجرد أدوات للدعوة إليها، فأساءت إليها كثيرا وحجبت كثيرا من المسلمين عن الاستفادة منها، إذ ينظر إليها دائما بأنها رغبة علمانية وليست علمية بحتة.

الخاتمة:

وبعد فهذه إطلالة سريعة حول بعض ما كتب وألف في المناهج المعاصرة ومنطلقاتها الفكرية، وإشكالاتها التطبيقية في قراءة النصوص وخاصة الخطاب القرآني، توصلنا من خلالها إلى بعض الإستنتاجات منها:

- القرآن الكريم هو كلام الله عز وجل، أنزله لهداية الناس أجمعين وهو خطاب عالمي عام وشامل وصالح لكل زمان ومكان.
- الخطاب القرآني خطاب واحد لا تناقض فيه ولا تكرار، بلغه الرسول ﷺ كما أنزل، وكما أمر، فكان خير مبلغ عن الله.
- الخطاب القرآني تعرض لمختلف الحملات التي شككت فيه وحاولت تشويهه منذ نزوله وإلى يومنا هذا.
- فوض الله سبحانه وتعالى محمداﷺ لتبيين وشرح وتفسير قسم من القرآن الكريم، وترك قسما آخر لأهل الاستنباط والاجتهاد والمفسرين، الذين تتوفر فيهم الشروط والضوابط المنهجية والعلمية لتفسير كلام الله.
- بعض المناهج والآليات خدمت كتاب الله وكانت بحق إضافة في قراءة الخطاب القرآني.
- وبعض المناهج والنظريات التي طبقت- قصدا- لضرب كتاب الله، تلاشت واندثرت وفشلت وانتهت، وبقي كتاب الله خالدا شامخا يعلو ولا يعلى عليه إلى يوم الدين.

- كل من استغل هذه الآليات المعاصرة، ووظفها سلبيا في كتاب الله كان حاله كحال طوائف كثيرة، وفرق عديدة، مرت عبر تاريخ التفسير، لم يبق منها إلا الأطلال، ولم تذكر إلا على سبيل التحذير.
- الكتابة والدراسة والغوص في كتاب الله، لها حلاوة، لا يعرفها إلا من ذاقها وتلذذ بها فهو كتاب لا تنقضي عجائبه، ولا يمل منه.
- لا ندعي أننا أضفنا شيئا جديدا، ولكن حسبنا أننا حاولنا وبحثنـــا واجتهدنا في موضوع واســـع كالبـــحر، متلاطم الأمواج، فدخلنا إليه ونحن لا نحسن السباحة، فاكتفينا بالنظر إليه، واستمتعنا بالغوص في سواحله، وارتوينا من مائه العذب الزلال.

المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم.**

1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق :عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط1، 1411هـ/ 1991م، مادة (فكر) ج4، ص446.
2) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرءان الكريم، المكتبة الإسلامية، استانبول، تركيا، د، ت، مادة (فكر)، ص :525.
3) سورة الجاثية، الآية: 13.
4) المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، طبع دار عالم الكتب، بيروت، 1399هـ/1979م، ص137.
5) سورة الحجر، الآية: 9.
6) سورة المائدة، الآية: 50.
7) ابن منظور، لسان العرب، مادة "نهج، مجلد6، دار الجبل، بيروت، دط، 1988، ص277.

8) يوسف الخياط، معجم المصطلحات العلمية والفنية، عربي/ إنجليزي/ فرنسي/ لاتيني، دار لسان العرب، بيروت، د ط، 1994، ص569.
9) مجدي وهبة، مصطلحات الأدب، إنجليزي/ فرنسي/ عربي، مكتبة لبنان، بيروت، دط، 1994، ص569.
10) النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ط7، 1977، ج1، ص36.
11) عبد الرزاق هرماس، القرآن الكريم ومناهج تحليل الخطاب، كلية الأدب، جامعة القاضي عياض، بني ملال، المغرب، دط، دت، ص16.
12) عبد الغامدي، تشريع النص، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1987، ص72، 73.
13) محمد سعيد رمضان البوطي، السلفية مرحلة زمنية مباركة، دار الفكر، دمشق، ط1، 1408هـ، ص60.
14) عبد العالي بوطين، إشكالية المنهج في الخطاب العربي الحديث، مجلة عالم الفكر، ع1،2، مجلد،32، 1994، ص455.
15) عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، (تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة) المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1999، ص56.
16) عبد المالك مرتاض، النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1983، ص55.
17) سمير سعيد، مشكلات الحداثة في النقد العربي، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ط1، 2002، ص41، 42.
18) أحمد ابن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير، تحقيق: يحي مراد، مؤسسة المختار، ط1،مصر 2008، ص106.

19) ميخائيل باختين، الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة، محمد البكري ويمني العيد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1986، ص155.
20) لطفي فكري محمد الجودي، جمالية الخطاب في النص القرآني، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط1، 1435ه/2014م، ص79.
21) ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة، سالم ياقوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، 1978، ص100.
22) ميشال فوكو، حفريات المعرفة، مرجع نفسه، ص107.
23) رسالة القرآن، نخبة من الباحثين والكتاب، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 1431ه/2010م، ص40، 41.
24) محمد أركون، تاريخية الفكر الإسلامي، مركز الإنماء القومي، بيروت، ترجمة: هاشم صالح، ط1، 1986، ص42.
25) ينظر: عبد الرزاق هرماس للقرآن الكريم ومناهج تحليل الخطاب، جامعة القاضي عياض، بني ملال، المغرب، ص 31- 34.
26) عبد الرزاق هرماس، القرآن الكريم، ومناهج تحليل الخطاب، مرجع نفسه، ص45، 46.
27) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، نشر دار الجبل بيروت، 1393ه، مراجعة: محمد زهري النجار، ص13.
28) عبد الرزاق هرماس، القرآن الكريم ومناهج تحليل الخطاب، المرجع السابق، ص51.
29) حنفي، التراث والتجديد، دار التنوير، ط1، 1981، بيروت، ص151.
30) حسن حنفي، التراث والتجديد، مرجع نفسه، ص94.
31) عبد الرزاق هرماس، القرآن الكريم ومناهج تحليل الخطاب، ص44.